No 9 P-P 105 - 118
Jr. A.D Dept Arabic

KASHERE JOURNAL OF LANGUAGES, VOL. 3, NO 1, December 2021

FEDERAL UNIVERSITY OF KASHERE
2011
Education for Global Citizenship

KASHERE JOURNAL OF LANGUAGES
KASHJOL

A JOURNAL OF
THE DEPARTMENT OF LANGUAGES
FEDERAL UNIVERSITY OF KASHERE, GOMBE STATE

Vol. 3, No. 1

December, 2021

KASHERE JOURNAL OF LANGUAGES

VOL. 3, NO 1, December 2021



ISSN: 2705-2958

FUK PRESS
08030553349

البلاغة النبوية خلال آثار الدارسين، دراسة بلاغية

دكتور أحمد دام جوب
محاضر بقسم اللغة العربية ،جامعة إلورن ،نيجيريا
Ahmad.dd@unilorin.edu.ng
Diopahmad2@gmail.com
+234-7057766781

ملخص البحث
بعث الله سيّدنا محمدا عليه الصلاة والسلام معلما ومرشدا وهاديا إلى الصراط المستقيم بالقرآن الكريم وبأحاديثه، فهي تدل على فصاحته وبلاغته،وقد قام بعض العلماء بدراسة أحاديثه على أوجه مختلفة، ومن بينها الدراسة البلاغية ،لبيان فصاحة الرسول وبلاغته ، وما تحتويه أحاديثه من الخصائص الفنية اللغوية .وكتاب الطراز لشيخ يحيى بن حمزة العلوي اليماني المتوفى سنة ٧٤٥هـمن أبرز كتب البلاغة التي قامتبدراسة فصاحة الرسول وبلاغته. فخلال هذه المقالة أدرس بعض الجوانب البلاغية افي الكتاب، لنقف على بعض البلاغة النبويّة الواسعة باعتبارها عاملا من العوامل التي تعمل على محافظة اللغة العربية الفصحى. ولتحقيق هذا الهدف قسمت المقالة إلى ثلاثة مباحث وخاتمة، المبحث الأول نبذة عن الكتاب ومؤلفه وإنجازاته العلمية ،وفي المبحث الثاني ندرس بلاغة النبي خلال الملامح البيانية في بعض الأحاديث النبوية التي أوردها المؤلف في الكتاب .وأتناول في المبحث الثالث صور فصاحة الرسول عبر صور المعاني خلال الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب . والخاتمة وتحتوي الملخص والنتائج والتوصيات والاقتراحات إنّ البحثعن فصاحة الرسول وبلاغته دراسة مهمة يجدرأن يقوم بها الباحثون ليبرزوا البلاغة النبويّة التي تعتبر عاملا من أعظم عوامل حفظ اللغة العربية وبقائها قادرة على شرح القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وإعطاء المعطيات الثقافية للأمة الإسلامية والعربية .

مقدمة :
الحمد لله الذي خلق الإنسانعلمه البيان ، فنطق باللسان الفصيح، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدأفصح من نطق من عرب وعجم ، وعن عمر بن الخطاب أنه قال: يارسول الله ؛ مالك أفصحنا ولم تخرج من بين ظهرنا؟ فقال:"كانت لغةإسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظتها ، فحفظتها ". وعن أبي بكرالصديق أنه قال له مرة : "لقد طفت في العربية ،وسمعت فصحائهم ،فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، يشيرهذان الحديثان إلى فصاحة الرسول وبلاغته.
وقد تناول الكتاب والعلماء قديما وحديثا دراسة فصاحةالرسول وبلاغته وعبروا عن ذلك بعبارات رائعة، ومن بينهم الزمخشري ، حيث قال "ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته ألقى زبدته على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فما من خطيب يقاومه إلاّ نكص متفكك الرحل وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارج السحل ، وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبردون مع الحصان المطهم "[3]
وقال مصطفى صادق الرفاعي في البلاغة النبوية : "محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ،حتى ليس فيها كلمة مفضولة وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلم يتكلم ،وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر خواطرها"[4] ،ولم يكن محمد نبي الإسلام فحسب بل نبي اللغة العربية ، والثقافة العربية ، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم[5]
وقال الجاحظ أنه "لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة ..وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ،وغشاه بالقلوب ، وجمع له بين المهابة والحلاوة،وبين حسن

الإفهام وقلة عدد الكلام ،مع استغنائه عن إعادته،وقلة حاجة السامع إلى معاودته..ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم"

يقوم هذا البحث بدراسة البلاغة النبوية في بعض الأحاديث النبويّة في كتاب الطراز لنقف على مدى إسهامات المؤلفي بيان بلاغته -صلى الله عليه وسلم -.وخلال البحث أدرس في المبحث الأول عن حياة الشيخ ،وفي الثاني نبحث عن صور البيان في الأحاديث التي تشهد بفصاحة الرسول وبلاغته،وفي المبحث الثالث دراسة بعض صورالمعاني ،والبديعفي الأحديث التي استدل بها المؤلف، لفصاحة الرسول وبلاغته ثمّ الخاتمة.

يبدأالشيخ يحي في دراسته عن الفصاحة والبلاغة بذكرأمثلة من القرآن الكريم أولا إشارة إلى أنه المصدر الأول والمرتبة العليا في الفصاحة والبلاغة وفي ضرب الأمثلة والشواهد فتليهفي ذلك الأحاديث النبوية ، فكلام الخلفاء الراشدين كالإيمام علي - رضي الله عنهم - ، فيليهم أقوال العلماء والشعراء . ويعتبر هذا الترتيب عملا جيدا يشير إلى وجوب الاهتمامببلاغة القرآن والأحاديث بغض النظر عن الذين لايجيزون الاحتجاج بالحديث النبوي لتجوز الراوي بالمعنى ،أمثال أبي الحسن بن الضائع وأبي حيان

المبحث الأوّل : نبذة عن يحي بن حمزة العلوي اليماني :

هو: يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الحسينيّ العلويّ ، الطالبي من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن صنعاء ،عاش مابين (٦٦٩- ٧٤٥هـ = ١٢٧٠-١٣٤٤م)[٨]

أظهر الدعوة بعد وفاة المهدي محمد بن المطهر (سنة ٧٢٩هـ) وتلقّب بالمؤيّد بالله أو المؤيّد بربّ العزة.وكان عالما متمكنا أصوليا فقيها صوفيا داعية نحويا بلاغيا ، وكان معتدلا لايقول في أبي بكر وعمر إلاّخيرًا[٩] وقيل أنّه صنف ما لا يقل عن ستة وسبعين كراريس . ومن أشهر كتبه : الشامل في أصول الدين ، ونهاية الوصول إلى علم الأصول ،في ثلاثة مجلدات،والتمهيد لأدلة مسائل التوحيد ،والحاوي في أصول الفقه :ثلاثة مجلدات ،والمحصل في كشف أسرار المفصل ، وشرح الكافية ،والطرار المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق الإعجاز: ثلاثة أجزاء . الانتصار في الفقه ،وتصفية القلوب عن أدران الأوزار والذنوب ، تصوف ،والاختيارات المؤيدية ،والدعوة العامة ،والرسالة الوارعة لذوي الألباب ،والأنوار المضيئة في شرح الأخيار النبوية ،ومختصر الأنوار المضيئة ،وخلاصة السيرة ،وسيرة ابن هشام و واللباب في محاسن الآداب ، والإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ،ومشكاة الأنوار في الرد على الباطنية الأشرار ،والمعالم الدينية ، والعقيدة ،والإيضاح لمعاني المفتاح للفضل بن أبي السعد العصفيري، في الفرائض ، وطوق الحمامة في مباحث الإمامة،والديباج المضي في شرح نهج البلاغة للرضي ،والعمدة في فقه الزيدية في ست مجلدات١.

المبحث الثاني:في دراسة علوم البلاغة :

١- البيان والفصاحة:

بدأ الشيخ يحي دراسته البلاغية كعادة علماء البلاغة فأوضح ماهية البيان باستشهاد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "إنّ من البيان لسحرا " وقال المصدر منه "تبيان" بالكسر في التاء ، وهو جار على غير القياس ، والقياس فيه فتحها ك "التّهذار" و"التّلعاب "و"التّرداد" ، ولم يجيء كسره إلا في بنائين : "تبيان" و"تلقاء " وأشار الشيخ أن البيان هو الفصاحة،وأن الرسول لم يفتخر بأي علم من العلوم ،فلم يقل : أنا أفقه الناس ،ولا أنا أعلم الخلق بالحساب ، والطبّ ، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة فقال : عليه السلام : " أنا أفصح من نطق بالضاد "[١١] وقال في حديث آخر:"أوتيت خمسا لم يعطهنّ قبلي أحد ، كان كل نبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت ليّ الغنائم ، وجعلت ليّ الأرض مسجدا وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يديّ مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم "١٢ ويشير بقوله عليه الصلاة السلام :"وأوتيت جوامع الكلم " إلى فصاحته وبلاغته وثمرتهما وفضائلهما ،وأنّ أحاديثه أفصح وأبلغ من الشعر لأنّ الله شرفه عن قول الشعر ونظمه ،وأعطاه البلاغة والفصاحة في المنثور من الكلام .ويقول الزمخشري

: "أنّ البيان هو ما يميّزبه الانسان عن سائر الحيوان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير"[13] وورد في الموطأ الحديث روي:عن عبد الله بن عمر: أنّه قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا. فعجب الناس لبيانهما .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إنّ من البيان لسحرا" أوقال :"[14] إنّ بعض البيان لسحر". يعني منه نوع يحل من العقول والقلوب في التمويه محل السحر ، وورد :"إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا"[15]

وأما فصاحة اللفظة وجزالتها ورقتها فقد رأينا الشيخ يحي يضرب أمثلة لها من السنة النبوية لبيانها ، منها :

قوله عليه السلام : "يا ابن آدم تؤتى كلّ يوم برزقك وأنت تحزن ، وينقص كلّ يوم من عمرك وأنت تفرح ،أنت فيما يكفيك وتطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع "بدأ الرسول حديثه بأداة النداء البعيد مع قرب المنادي لبيان عن غفلته إذ يؤتى برزقه يوميا يجب أن يفرح بذلك ويحمد الله ولكن يحزنكأنه لم يجد شيئا ، و ومن شدة غفلته أنه ينقص من عمره وهويفرح ويحتفل بعودة يوم مولده ولا يحزن بإقتراب يوم موته،ونجد في الحديث أساليب فنية رقيقة كأسلوب المقابلة والتجنيس بلاتكلف.مع فصاحةكلماته .

ومن الجزالة اللفظية قوله صلى الله عليه وسلم :" أما رأين المأخوذين على الغرّة المزعَجين بعد الطّمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات ،حتّى أتتهم رسلهم ، فلا ما أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا ،قدموا على ما عملوا ، وندموا على ما خلّفوه ولن يغني الندم ، وقد جفّ القلم "[16] يشتمل هذا الحديث على ألفاظ جزلة خالية من الوحشة والغرابة.

وأما الرقة فقد مثل لها الشيخ يحي بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك في الموتى ،فإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح ، وإذا أصبحت فلا تحدّثها بالمساء ،وخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك ،ومن فراغك لشغلك " وقوله عليه السلام : "رحم الله امرأ تكلّم فغنم ، أو سكت فسلم ، إنّ اللسان أملك شيء للإنسان " كم من كلمات رقية لطيفة في هذا الكلام الخالي من الركاكة وضعف التأليف فكلامه صلى الله عليه وسلم في الطبقة العليا من الفصحة والبلاغة بعد القرآن الكريم ،فإذا قارنت بين الكلمات الواردة في هذين الحديثين والحديث قبلهما تدرك ما الأول من الألفاظ الجزلة ، وما في الحديثين من الرقة ، انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم :(أما رأين المأخوذين على الغرّة المزعَجين بعد الطّمأنينة...)كلمات جزلة، ولاحظ قوله (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل...) تجد كلماته رقيقة، ومن الجزالة قوله عليه الصلاة والسلام في بعض مواعظه وخطبه :

" لا تكونوا ممّن اختدعته العاجلة ، وغرّته الأمنيّة ، واسهوته الخدعة ، فركن إلى دار سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، إنّه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب ، أو صرّ حالب ،فعلام تفرحون ، وما ذا تنتظرون ، فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن ، وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل ، فخذوا الأهبة لأزوف النقلة ، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أنّ كلّامرىء على ما قدّم قادم ، وعلى ما خلّف نادم"[16]

فإذا أمعنت النظر في هذا الحديث تجد في ألفاظه السلاس للنطق ، والوقع في الأفئدة ،وأنّه يحتوى من التنبيه البالغ ، والوعظ الزاجر،والنصيحة النافعة ،فقد صدره الرسول بالتحذير أولا عما يعرض من مصائب الدنيا من الانخداع والغرور والاستهواء، وعقبه ثانيا بالتحذير عن السكون إلى الدنيا ، ونبّه بألطف عبارة وأوجزها على زوالها وانقطاعها، وأردفه ثالثا بالحث على عمل الآخرة وأخذ الأهبة للزاد ، ونبّه على سرعة زوالها وانقطاعها ، وختمه بتحقق الحال في الإقدام على ما فعله المرء من خير وشرّ ، وأنّه نادم لا محالة على ما خلّفه من الدنيا ، وأنّه غير نافع ندمه ولامُجْد ،[17] . ونجد في الحديث لطائف بلاغية من خبر وإنشاء واستفهام خارج عن أصل وضعه في قوله (فعلام تفرحون وما تنتظرون) ،والجناس ، والسجع، والتشبيه الذي يتضمنالتوبيخ ،في قوله (فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن ...) لأنهم يتمسكون بشيء كشيء غير موجود وهوحياة الدنيا.ومنالسجع : قوله عليه الصلاة والسلام :" ...العاجلة ، و...الأمنيّة ، و...الخدعة ،و...الزوال ، و....الانتقال".

ومن التجنيس ، في قول عليه السلام : "كإناخة راكب ، وصرّ حالب "جناس ناقص .و في قوله " كلّ امرىء على ما قدم قادم "جناس الاشتقاق[18] .

ومن اللطائف في الحديث : الائتلاف ،وهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمقصود ، فحيث كان المعنى فخما ، فاللفظ يكون جزلا كقوله : "لاتكونوا كمن اختدعته العاجلة ،وغرته الأمنيّة واستهونه الخدعة ".وإن كان المعنى رشيقا ، كان اللفظ رقيقا سهلا كقوله –عليه السلام-: " فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل "[19] ونجد أيضا في الحديث لطائف التشبيه.

ومن البلاغة النبوية:الإيجاز وهووضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها، وهوعلى ضربين :إيجاز الحذف وإيجاز القصر

أما إيجاز الحذف : فقد أورد الشيخ يحي أمثلة من الحديث النبوي لتوضيحه وبيان بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم - منها :قوله صلى الله عليه وسلم :" أوتيت جوامع الكلم " ، والجوامع جمع جامعة ،والكلم جمع كلمة ، يعني أن الرسول عليه السلام يتكلم بألفاظ قليلة التي تدلّ على معان كثيرة ، ولهذا نجد جلّ كلامه يجرىعلى مجري الإيجاز،مثل قوله : " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام " ومعنى قوله (لا ضرر) أي : لا ينبغي لأحد أن يضرّ غيره ،ومعنى قوله (ولا ضرار في الإسلام) أنّه لاينبغي لك أن تضر أحدا ، ولا ينبغي له أن يضرّك .فإنّ هذه الكلمات القليلة تشتمل على معان شرعية ، وآداب حكميّة تزيد على الحدّ وتفوت على العدّ وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم " الخراج بالضمان " ونجد تحت هتين كلمتين أسرارا فقهية ، وبدائع أدبية تشتمل عليها كتب الفقه " والسبب في ذلك هو أنّ رجلا اشترى من غيره عبدا ، فأقام عنده مدّة ثمّ وجد به عيبا ، فخاصمه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنّي استغل عبدي ،فقال : " الخراج بالضمان " ، ومعنى هذا : أن علته تكون للمشتري ، لأنّه لو تلف قبل الرّد كان تالفا من ضمانه فلهذا كان ضمانه عيله ، ومن ثمّ اتّسع نطاق الاجتهاد وعظمت فوائده ، فالحاصل من هذا أنّ الإيجاز من أعظم قواعد البلاغة ،ومن مهمات علومها .

يوجد الإيجاز بحذف في المفردات ويدل على قوة بلاغة الرسول ،وقد ضرب الشيخ يحي أمثلة لشرحه ، منها :قوله صلى الله عليه وسلم : "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليتوضّأ " يريد : إذا أراد أحدكم لأن الفعل مسبب عن الإرادة[20] . وكقوله عليه السلام في حديث جابر- رضي الله عنه – لما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم : " هل تزوجت ؟" فقال له : نعم فقال : "بكرا أم ثيّبا ؟ " فقال بل ثيّب قال : " هلاّ بكرا تلاعبها وتلاعبك "[21] أي هلا تزوجت بكرا.ومن أساليب الإيجاز الإيجاز القصر وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني،٢٢ ويسمى الإيجاز من غير الحذف أو إيجاز البلاغة الذي يدل على فصاحة الرسول وقدرته على التعبير من غيرالإخلال والتعطيل .فقد ذكر الشيخ يحي أحاديثا شرح بها هذا الموضوع منها:

قوله صلى الله عليه وسلم :"الحلال بيّن والحرام بيّن ،وبين ذلك مشتبهات " فهذا من أجمع ما يكون للمعاني البلاغة ،فهو كلام موجز وبليغ لايحمل الحذف، ومثل هذا قوله –عليه السلام-:" إنّما الأعمال بالنيّات ولكل امريء ما نوي "وقوله صلى الله عليه وسلم : "الضّعيف أمير الرّكب " وفي حديث آخر : "سيروا بسير أضعفكم " وقوله لمعاذ: "صلّ بهم صلاة أضعفهم ،فإنّ فيهم الصغير ، والكبير ، وذا الحاجة لا تكن فتّانا " وقوله : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "، وهذه الأحاديث تتحدث عن الأمور الدينية والاجتماعية بأسلوب الإيجاز من غير الحذف يدركه القاريء والمستمع بالسهولة لمحاسنه البلاغية[23] .

ومن الإيجاز بالقصر : قوله صلى الله عليه وسلم : " المعدّة بيت الدّاء والحمية رأس الدّواء ، وعوّدوا كل جسم ما اعتاد " ، فهذا الحديث ثلاث جمل قد جمعت من المعاني الحكمية ، والأسرار الطبية ، ما لا يحيط بوصفه إلا الله .[24] ومن الإيجاز بالقصرقوله عليه السلام:-"الطمع فقر واليأس غنى "

ومن الإيجاز قوله صلى الله عليه وسلم – حكاية عن الله تعالى : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بله ما ادخرت لهم "، وفي حديث آخر : " في الجنّة ....." إلى آخر الحديث .فكلمات هذا الحديث تحمل معان كثيرة تملأ كتبا مما يدل على

فصاحة الرسول وبلاغته . وقوله صلى الله عليه وسلم – في الإيمان : " إنّه بضع وسبعون بابا أو شعبا أعلاه لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق "[٢٩]

ومن الإيجاز الرشيق قوله صلى الله عليه وسلم – في طلب الرزق: " إنّ الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله " وقوله صلى الله عليه وسلم : " الرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك[٣٠]

ومن الإيجاز قول علي عليه السلام-: " التوحيد ألاّ تَتَوَهَّمَه والعدل ألاّ تتّهِمُه "، هاتان الكلمتان قد جمعتا وحازتا علوم التوحيد على كثرتها ،وعلوم الحكمة على غزارتها ، بألطف عبارة وأوجزها[٣١] .

الإطناب :وهو زيادةالألفاظ على المعنى لفائدة فمنه قوله –عليهالصلاة والسلام -: "من لذّذ أخاه بما يشتهيه رفع الله له ألف ألف درجة ،وكتب له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيّئة وأطعمه من ثلاث جنان ، من جنة الفردوس ، ومن جنّة الخلد ومن جنّة عدن "ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :"من سقى مؤمنا شربة شقاه الله من الرّحيق " ، أو قال : " من نهر الكوثر ، ومن كسا مؤمنا كساه الله من سندس الجنّة ، ومن أطعم مؤمنا لقمة أطعمه الله من طيّبات الجنّة وفواكهها" ولعل الإطناب في ذكر:(وفواكهها) لأنها من طيبات الجنة[٣٢] وقوله صلى الله عليه وسلم ، في الإيمان : " إنّه بضع وسبعون بابا أعلاه لا إله إلاّ الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق " ، وينظر الديق يتبن أن الحديث تحت الإيجاز الرقيق والاختصار الفائق لاندراج الخصال الكثيرة والشعب المنتشرة تحت ما ذكره الرسول في حق الإيمان . ولعل الإطناب في (إنّه)

ومن الإطناب قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يُكمَل إيمان العبد بالله حتّى يكون فيه خمس خصال ، التوكل على الله ،والتفويض إلى الله ، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله ، والصبر على بلاء الله ،إنّه من أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله ،ومنع لله فقد استكمل الإيمان " وظاهر الإطناب في تكرير لفظ الجلال ولعل لتلذذ بنطقه والتبرك ، وأن الإيمان قد اكتمل بتلك الخصال الخمس ويكون ماذكره بقوله " إنّه من أحبّ لله .....إلخ " داخل في تلك الخصال[٣٣]

ومن الإطناب الحسن قوله صلى الله عليه وسلم :" إنّ العبد لا يكتب في المسلمين حتّى تسْلم الناس من يده ولسانه ، ولا يعد من المؤمنين حتّى يأمن أخوه بوائقه ، وجاره بوادره ،ولا ينال درجة المتقين حتّى يدع ما لا بأس به حذّارا مما به الناس"[٣٤] تظهر في هذا الحديث ألفاظ تحمل اللفظة منها معان كيثيرة ، فلفظة البوائق تعني أقوال وأفعال تضر الجار.

ومن الإطناب قوله صلى الله عليه وسلم : " يا بن آدم تُوتي كلّ يوم برزقك وأنت تحزن وينقص كلُّ يوم من أجلك وأنت تفرح تُعطَى ما يكفيك وتطلب ما يُطغيك لا مِنْ كثير تشبع، ولا بقليل تقنع " لهذا الإطناب البالغ ينفع في الوعظ والإرشاد والنصيحة[٣٥] .

ومن طرائف الإطناب التأكيد :هو تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره لإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عمّا أنت بصدده ،فقد أنار الشيخ يحي التأكيد باللفظ والمعنى والتكرار الفائق بقوله – عليه السلام- : في وصف يوسف الصدّيق عليه السلام – :" الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم " يعني أنّه نبي ابن نبي بن نبي ،ويدل هذا أنّه من الأصلاب الطاهرة ،فهذا التكرير بالغ دالّ على نهاية الشرف وإعظام المنزلة عند الله ٣١

وبعد جولتنا في حديقة علم المعاني والاقتطاف من بعض ثمراته الطيبة نغوص في بحارالبيان لنخرج من لآليه أساليبه القيمة ، نجد الشيخ يحي يدرس موضوعات علم البيان بالقرآن الكريم أولا ثم بالأحاديث النبوية ثانيا ،نراه يدرس الاستعارة قائلا:

"أن الاستعارة المجازية مأخوذة من الاستعارة الحقيقية ، وندرك ذلك فنقول مثلا أن الواحد منا يستعير من غيره رداءه ليلبسه ،ومثل هذا لايقع إلا من شخصين بينهما معرفة ومعاملة وعلاقة فتقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع ، وهذا الحكم جار في الاستعارة المجازية ،فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلاّ بواسطة التعارف المعنوي ،فأما معناها في مصطلح علماء البيان فقد ذكر الشيخ يحي خمسة تعريفات منهم ،فالمختار منها: هذا التعريف : تصييرك الشيء الشيء وليس به ، وجعلك الشيء للشيء وليس له ، بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكما[٣٢] . ويقال أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروفا ثم يستعله الشاعر أو الكاتب في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعبارة[٣٣]

وقد ذكر الشيخ أمثلة للاستعارة في الأحاديث النبوية منها :

١-قوله صلى الله عليه وسلم : " **أكثروا من ذكر هاذم اللذّات فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسّعه عليكم** " فاستعار هاذم اللذات للموت ،على سبيل الاستعارة التصريحية وهو مطوي الذكر ،ولم ظهر لم تكن هناك استعارة وفي هذه الاستعارة الرقة واللطافة وهيعدم التصريح .وهاذم اللذات قاطعها.وهذمه:أسرع قطعه.وسيف مِخْذَم ومِهْذَم وهُذام

٢- قوله عليه السلام :" **لا تستضيؤوا بنار المشركين** " فاستعار ذكر النار للرأي والمشورة على سبيل الاستعار التصريحية ، والمعنى : لاتهتدوا بآراء المشركين ، ولا تتكلوا على أقوالهم ، لما فيها من الخديعة والمكر والغرر .[٣٥] ففي استعار النار للرأي دلالة واضحة على سوء المشركين وعداوتهم الشريرة .

٣ - من ذلك قوله –عليه السلام- :" **إنّ الغضب ليوقد في فؤاد ابن آدم النار ألا تراه إذا غضب كيف تحمرّ عيناه وتنتفخ أوداجه** " فاستعار الوقيد لاشتداد الغضب وتراكمه .على سبيل الاستعارة[٣٦] التصريحية حيث شبه الشدّة المتولد من الغضب بالنار فحذف المشبه وذكر المشبه به للمشبه

٤- قوله – عليه السلام - : " **ما ذئبان ضاربان في زريبة أحدكم بأسرع من الحسد في حسنات المؤمن** " فاستعارة الذئبين في إفساد الغنم بضراوتهما لما يحصل من عقوبة الحسد في إحباط الحسنات المستحقة على الأعمال الصالحة ، ويري أن إسراع الحسد في الإحباط بمنزلة إسراع هذين الذئبين في إهلاك الغنم وقتلها ،وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية .

٥-من بديع الاستعارة وغريبها قوله عليه السلام : "**ما جرع عبد قَطّ جرعتين أعظم عند الله من جرعة غيظ يلقاها بحلم أو جرعة مصيبة يلقاها بصبر جميل** " فاستعارة الجرعة لما يكابده الإنسان عند ملابسة الغيظ ومقاساة الأحزان ، وخص الجرعة ؛لأن هذه الأمور كلها تغص القلب وتقع عليه كما تقع الجرعة عليه عند شربها ، وهذه الاستعارة لطيفة يعقلها أهل الكياسة،وينظر لها الأذكياء[٣٧]

٦- قوله –عليه السلام - : " **المؤمن والكافر لا تتراءى نيرانهما** " فاستعارة ذلك إعلاما لما بينهما من البعد والانقطاع في جميع الأحوال؛لأنهما إذا تباعدا في الدين فما وراء ذلك يكون أبعد وأعظم في الانقطاع ، وفي هذا إشارة إلى الإيمان أعظم الوصل فيما بين المسلمين، وأن الافتراق فيه لا وصلة بعده ، ولهذا استعارة النار للآراء والأفكار؛ لأنها ترى من الأمكنة البعيدة .[٣٨]

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " قيّدوا القرآن بالدرس فإنّ له أوابد كأوابد الوحش " فاستعارة الأوابد وهي الحيوانات الوحشية لما فيها من النفار وشدّة الشرود لذهاب هذه المحفوظات عن القلب إذلم تكن راسخة فيه بشدة الدرس لها ودوامة القراءة.[٣٩] ونجد في الحديث أسلوب التشبيه .

ومن بلاغة النبيّ وفصاحته الرائعة : التشبيه وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى لاعلى وجه الاستعارة التحقيقية نحو أيت أسدا في الحمام ،ولاعلى وجه الاستعارة بالكناية نحو أنشبت المنية أظفارها، ولاعلى وجه التجريد نحو لقيت من زيد أسد[٤٠] ، فقدأورد الشيخ بعض الأحاديث لهذا الموضوع منها: قوله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن كالسنبلة تعُوج أحيانا وتقوم أخرى" ، أراد بذلك أنه لا يخلو في تصرفه عن أن يكون مستقيما على الدين فذلك حال الاستقامة ، أو يكون مقارفا للذنب ، فتلك حالة الاعوجاج .[٤١] وهذا التشبيه مرسل بذكرالأركان وفيه تنبيه على فوائد المؤمن ومنافعه.

ومن ذلك قوله – عليه السلام : " المؤمن كخامة الزرع "، أراد أنّه غافل عن أكثر المداخل، مشغول بما هو فيه من أمر الدين عن التفطن للأمور كالزرع الكشيف ، فإنّه إذا غلُظ عليها لم تكن بارزة للريح والشمس فتحصل لها الصلابة ، فتراه في جميع مجاربه لا بد من إفادته للبلاغة ومراعاتها فيه.

ومنها قوله عليه السلام : "كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل " يعني في قطع العلائق ، وخفة الحال ، فإن الغريب لا علقة له في بلاد الغربة ، وابن السبيل لا لبث له إلا مقدارالعبوروقطع المسافة.فهذا المعنى قد أظهرالتشبيه نهاية الظهور وأوضح حاله ويفيد التشبيه هنا على الإيجاز.

ومن روائع التشبيه في الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم :"مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة :طعمه طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن ،كمثل الريحانة ، ريحها طيب ولاطعم لها" وقوله عليه السلام : "مثل الرجل الذي لا يُتمّ صلاته كمثل الحامل حملت حتى إذا دنا نفاسها ، أملصت فلاذات حمل ولاذات ولد"[٤٤]

ومن ضروب التشبيه البليغ كقوله صلى الله عليه وسلم :"العزل هو الوأد الخفي" هذا التشبيه فائق لرشاقته ، وراق في جودة نظمه وبلاغته ، "والوأد" هو ما كانت العرب تفعله من دفن البنات وهنّ أحياء، خوفا من العار بركوب الفاحشة ، فجعل العزل كالوأد[٤٥] لما فيه من منع الحمل والإنجاب المتعمد الذي يترتب منه منع الحياة خوف الإنفاق كما هو ظاهر في العالم اليوم قال تعالى:"ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزهم وإياكم" الإسراء،

ومنه قوله عليه السلام :"الكمأة جُدريُّ الأرض " والكمأة ضرب من النبات إذا خرج في الأرض أفسدها ، ونقص زرعها ،فهي تفسد الأرض كما يفسد الجدريّ البدن.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ، كما رواه ابن عمر – رضي الله عنه –حين قال له معاذ بن جبل : أنؤاخذ بمانتكلم ؟ فقال :"وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم في النّار إلاّ حصائد ألسنتهم " فالتقدير على هذا يكون : الألسنة كالمناجل في الحصاد ، وحصد المنجل جزّه ، و" المنجل " حديدة حادة يقلم بها البيطار حافر الفرس ،فعلى هذا حصيدة اللسان طرفه

ومن التشبيه البليغ قوله صلى الله عليه وسلم : " البدعة شَرَكُ الشِرك " والتقدير البدعة كالشرك للشرك . وفي الحديث الجناس الناقص بين (الشَرَك –والشِرك)[٤٧]

ومن البليغ قوله :" إن من في الدنيا ضيف ، وما في يده عارية ، والضيف مرتحل والعارية مردودة "

ومن التشبيهالخفي الأداة ، لا تدرك إلاّ بمزيد من التفطن والخبرة ، قوله صلى الله عليه وسلم :" ما سكن حبّ الدنيا قلب عبد إلاّ التاط منها بثلاث : شغل لاينفك عناؤه ، وفقر لا يُدرَكُ ،غناهُ ،وأمل لا يُنالُ منتهاه" ، فقد اشتمل هذا الكلام من بالغ الحكمة وعظيم الزجر ونافع الوعظ ،وتتطفل على تقرير التشبيه فيه بنوع احتيال وتلطف ، كأنّه قال : إذا تمكن حبّ الدنيا من قلب العبد فكأنّه كالحال الساكن فيه ، ثمّ إذا كان ساكنا فيه فتكون هذه الخصال الثلاث ،كالملتاطة المختلط لعظم شغفهم بها وتمكنها من سويداء قلوبهم ، وقوله :"مادام رَسَنُه مُرْخًى ، وحبْلُه على غاربه مُلْقًى"[٤٨] ويسمى هذا التشبيه بالضمني .

ومن ضروب التشبيه التشبيه المرسل المجمل :قوله صلى الله عليه وسلم :"العلم الذي لاينفق منه صاحبه كالكنز الذي لا يُنْفَق منه " يبقى بلا فائدة

وقوله – عليه السلام - : "مثل أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق وهوى "

ومنه قوله –عليه السلام - : " المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا " وقوله : " المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عُضوٌ منها تداعى سائر أعضائه بالسهر والحمّى " وقوله : " الحياء من الإيمان كالرأس من الجسد " وقوله صلى الله عليه وسلم : " الناس كأسنان المشط في الإستواء " وقوله :" مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين "[٤٩] .

وقوله : " أمّتي كالمطر، لايُدرى أوله خير أم آخره" وقوله :"التائب من الذنب كمن لاذنب له "ونجد في هذه الأحاديث روعة وجمالا وحكما واضحا مع جزالة المعاني ،ففي تشبيه المؤمنين بالجسد الواحد بيانعلى وجوب تكاتفهم وتوادهم وتراحمهم والمساوات .

ومن التشبيه التمثيلي :قوله صلى الله عليه وسلم :" مثل هذه الصلوات الخمس كمثل نهر جارعلى باب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرّات ، ما عسي أن يبقي عليه من الدّرن"

ومن البلاغة النبوية استعماله أساليب الكنية، فقد ذكر الشيخ يحي عدة تعريفات للكناية من بعض العلماء وبين فساد ما ذهبوا إليه ،وكان المختارعنده في بيان ماهيةالكناية :أن يقال الكناية :"هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين ، حقيقة ومجازامن غير واسطة ،لا على جهة التصريح

"تفسير هذا التعريف هو :"اللفظ الدال" يحترز به التعريض لأنه يفهم من جهة الإشارة والفحوى ،وقولنا " على معنيين "يحترز به عما يدل على معنى واحد ويدخل فيه اللفظ المتواطيء كرجل . وفرس ، واللفظ المشترك كقولنا قُرء ، وشفق ، فإنهما دالان على معنيين ، وقولنا "مختلفين "يخرج عنه المتواطيء ، فإن دلالته على أمور متماثلة ، وقولنا "حقيقة ومجاز " يحترز به اللفظ المشترك ، فإن دلالته على جهة الحقيقة لا غير، وقولنا "من غير واسطة " يحترز به التشبيه لأنه يتم بالواسطة مذكورة أو مقدرة، قولنا "لا على جهة التصريح "يحترز به عن الاستعارة فإن دلالتها على ما تدل عليه من جهة تصريحها ، إما من غير قرينة أومعها كدلالة الأسد على الحيوان ،أو على الشجاع ،فكلاهما من جهة التصريح ، خلاف الكناية فإن الجامع ليس صريحا ،مثل قوله تعالى "فأتواحرثكم"البقرة ٢٢٣، وإنما هو مفهوم على جهة التبع كما دلت عليه بحقيقتها ، فهذا هو الحد الصالح لتقرير ماهية الكناية .[٥٠]

ومما أورده الشيخ من الكنايات في الأحاديث النبويّة منها:

ما روي أن رجلا يقال له : " أنجشة " غلام أسود ، وكان في بعض أسفاره فحدا بالإبل فطربت لحسن حدائه فأسرعت في سيرها وعليها النساء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :"ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير" ، فهذه الكناية لطيفة وهي على طريقة الكناية عن الصفة ، وإنما كني عنهن بالقوارير لأمور ثلاثة :

أما أولا : فلما هن عليه من حفظ الأجنة، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها.

وأما ثانيا :فلاختصاصهن بالصفاء والصقلة، والحسن والنضارة.

وأما ثالثا : فلما فيهن من الرقة والمسرعة إلى التغير والانثلام ، كما يتسارع الانكسار إلى القارورة : لرقتها ،وهذا الوجه هو الذي يومىء إليه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال له "رفقا بالقوارير "في حديث غير هذا.[٥١]

ومن ذلك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه قال :" كانت امرأة ممن كان من قبلنا ، وكان لها ابن عم يحبها فرادها على نفسها فامتنعت منه ،فأصابتها سنة مُجدِية ، فجاءت إليه تسأله فراودها فمكّنته من نفسها ،فلمّا قعد منها مقعد الخائن قالت له : اتق الله ، ولا تفضض الخاتم إلاّ بحقه ،فقام وتركها " ، وهذهكناية[٥٢] قد وقعت موقعها اللطافة والرقة ، وكنّتْ بالخاتم عن بكارتها على سبيل الكناية عن الموصوف .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما جاءه رجل يشهد له بالزّنا على نفسه ، فقال له : " لعلّك لا تعرف الزّنا ،فقال له : والله يا رسول الله ، لقد غيّبتُ ميلي في مُكحُلَتها كما يُغيَبُ الرِّشاءُ في البئر"،فكني بالميل عن الذكر، وبالمكحلة عن فرج المرأة [٥٣] ص٣١٢ج١ على سبيل الكناية عن الموصوف .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وآله لما قال له عمر : يارسول الله ، هلكت ! فقال : "وما هلكك؟" ، فقال : حوّلتُ رحلي البارحة ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :"أقبل وأدبر واتق الدّبر ، والحيضة " فكني عمر بقوله "حولت رَحْلي "عن أنه أتى امرأته من جهة دبرها ، فجعل تحويل الرحل كناية عن ذلك على سبيل الكناية عن النسبة وقد منع الرسول بهذا الحديث وطأ المرأة بدبرها وفي حيضتها .[٥٤]

ذكر الشيخ حديثا مثل به مفهوم الموافقة والمخالفة لكناية التعريض عند ما كان يناقش ما ذكره ابن الأثير للتعريف بالتعريض بقوله"أنّه اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقي،ولا المجازي " ،وقال الشيخ : أن هذا التعريف فاسد لأمرين

أما أولا: فلأن المفهوم منقسم إلى ما يكون مفهوم الموافقة فهو كقوله عليه السلام :" لا تُضحّوا العوراء " فإنه يدخل فيه العمياء ، "ولا تضحوا بالعرجاء " فإنه دخل فيه مقطوعة الرجلين من جهة مفهومه ،وأما مفهوم المخالفة فكقوله صلى الله عليه وسلم :"لا تبيعوا الطعام بالطعام إلاّ مثلا بمثل " فما لا يكون مطعوما لا يجري فيه الربا على زعم الشافعي،فدل على أن ما عدا المطعوم بخلافه ، وكل واحد من هذين المفهومين مأخوذ من جهة اللغة ، ودالة عليها الألفاظ ، والتعريض ليس مفهوما من جهة اللفظ كما قرر عليه كلامه ، فهذه مناقضة ظاهرة ؛ لأن قوله "

من طريق المفهوم " يدل على كونه لغويًا وتصريحه بأن التعريض يفهم من قصد المتكلم لا من طريق اللفظ ، ينقض ذلك .

وأما ثانيا : فلأن قوله :"لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي " ففضلة لا يحتاج إليها لأن ما قبله من القيود قد أغنى عنه وأنه ليخرج منه الاستعارة لأن دلالتها من جهة المجاز، ويخرج منه الكناية ، فإن مدلولها على ما تدل عليه من طريق الحقيقة والمجاز جميعا ، بخلاف التعريض فإنه خارج عن هذه الدلالات[٥٥] الحقيقية والمجازية جميعا.فدلالة التعريض تكون من جهة القرينة ،وليست من جهة المفهوم

وبعد جولاتنا في أعماق البيان نختتم الجولة بوقوف على بعض الجماليات البديعية في أحاديث الرسول التي تدل على فصاحته وبلاغته،ومماوقفنا عليه :

الإبهام والتفسير:

فالإبهام والتفسير من أروع البلاغة وبديعها لأنّ الإبهام شيء أولا يوقع السامع في الحيرة وتفكر واستعظام ، لما قرع سمعه فلا تزال نفسه تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والإطلاع على كنه حقيقته فإذا فوجئت بتفسيره فتعود إلى الراحة والانفتاح فتكتسب منذلك إعجابا وفخامة .والإبهام والتفسير شبيهان بالطي والنشر.

ذكر الشيخ أمثلة للإبهام والتفسير في الحديث الشريف ، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم "عش ما شئت فإنك ميّت ،وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ،واعمل ما شئت فإنك ملاقيه"[٥٦]

وقوله عليه السلام – " أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما " فهذا من رشيق الإبهام وبديعه ،ومن عجيب امره ، ودقيق سرّه، أنّه أمره بالاعتدال في حالي الحبّ والبغض ، ومجانبة الإفراط والتفريط .

فقال له "أحبب حبيبك على الهون منغير إفراط في حبّه فلعلّك أن ترجع عن بعض الأيام وإن قلّ ، فأتى بالهون منكرا مبهما ،وباليوم منكرا مبهما؛ليدلّ بهما على شدّة المبالغة في المفقود ،وإنّما قيّد الأول بالهون ،والثاني باليوم على جهة الإبهام ولم يعكس الأمر فيهما، لأن الأول موجّه على جهة الأمر،بخلاف الثاني .

فلهذا أمره بالتهوين في مبدإ الأمر، حبّا كان أو بغضا منغير تهالك فيهما مخافة أن يبدو له خلاف ذلك فيصعب تداركه ويعظم تلافيه،فلاجرم قيد الأمر بالهون،لما كان ملابساله ، وقيّد الرجوع باليوم ، لما كان عائدا إليه ، ولو عكس لم يعط هذا المعنى .

ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم " خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت قريش ملكها فاتركوه فلا تأخذوه ، فإنما هو رشوة "، فالإبهام هو قوله " ماكان عطاء".لاشتماله على مقاصد عظيمة[٥٧] .

الإبهام الذي ظهر تفسيره :للتفخيم وتعظيم الأمر ،ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤنتهما،عظيم أجرهما،لن يلقى الله بمثلهما " ثم قال بعد ذلك تفسيرا لهما : " الصّمت وحسن الخلق " وقوله صلى الله عليه وسلم :"ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم " ، قالوا : نعم ، قال " أفشوا السلام " فانظر إلى تفسير ما أبهم في هذين الخبرين ، ما أعظم ما اشتمل عليه ،من البلاغة ،وفي حديث آخر : "ألا أدلكم على أخسر النّاس صفقة" ، قالو : نعم ، قال :" من باع آخرته بدنيا غيره "[٥٨]

من بلاغة الأحاديث النبوية حسن المباديء والافتتاحات:

يقول العلوي لهذا الموضوع أنّه ينبغي لكل من يتصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام أن يكون مفتاح كلامه ملائما لذلك المقصد دالاً عليه ، ليكون معلوما من أوّل وهلة .فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم – فيما رواه ابن عمر – رضي الله عنه – قال : " كان يعلّمنا خطبة الحاجة بقوله : " الحمد لله نحمده، ونستعينه ،ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ،و أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمّدا عبد ورسوله "، فهذه الكلمات كان الرسول يذكرها إذا أراد حاجة من الحوائج من نكاح ، أو موعظة ، أوفصل قضية .فإذا نظرنا إلى هذا الافتتاح نجده ملائما للمطلوب من جميع الأفعال المطلوبة ،من التعريف والإقرار باستحقاق الحمد لله في كل حال لا يختص وقتا دون وقت ، ثمّ

أردفه بتجديد الحمد في مستقبل الزمان وحاله؛ولهذا وجّه الأوّل بالاسم ، والثاني بالفعل : ليدلّ بالأولى علىالثبوت والاستقرار ، ويدل بالثاني على التجدد والحدوث ، ثمّ عقّب الاستعانة لما كان محتاجا إليها في كل فعل ، وهي الألطاف الخفية من جهة الله - تعالى- لأنّ من الله -تعالى – من أجله يسهل كل عسير ، وبدون كل قاس ، ثمّ أردفه بالاستعاذة بالله من الأنفس ، لما فيه من الضرر العظيم من أجل دعاء النفوس كل شرّ ، وهي مطبوعة على أنها بالسوء في كلّ أحوالها ،ثمّ عقّبه بالاستعاذة من السيّئات فإنها مبعدة عن الخير ، داعية إلى الشر ، فمن أجل هذه المناسبة جعل هذا الدعاء ديباجة لكل مطلوب لما اختص به من الملائمة بذكر بعده .

ومن ذلك افتتاحه صلى الله عليه وسلم في الدعاء لأبي سلمة عند مَوته حيث قال : " اللهم ارفع درجته في المهديّين واخلفه في عَقبه من الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين"

فانظر إلى مناسبة هذا الافتتاح للحالة التي وقع فيها فافتتحه بذكر المهم الذي ينفقر إليه المدعوّ له في تلك الحال ، من رفع الدرجة في الأخرة ، ثمّ أردفه بذكر المهم الذي يؤثره المدعوّ له من صلاح عقبه من بعده في الدنيا ، ثمّ ختمه بالجمع بين الداعي والمدعوّ له.

وهذا من الافتتاح البليغ الذي يجب علينا الاقتداء به ، وبمطالعة الأحاديث النبوية نجد ما يكفي ويشفي .

ومن أساليب بلاغة الأحاديث النبوية : حسن الاستدراجات:

وهي من قولهم استدرجته إلى كذا إذا نزلته درجة درجة حتّى تستدعيه إليك وينقاد لما قلته ، ومن ذلك ما حكاه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحق : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى أحد اليهود فقال : " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ،والمصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ،وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضواناسيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فئازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما " ،وإني أنشدك بالله ،وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المنّ والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبتموني : هل تجدون فيما أنزل عليكم أن تؤمنوا بمحمّد ؟ وإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغي ، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه " يشتمل هذا الكتاب لطائف المحاورة وحسن الاستدراج المزيل للأحقاد والضغائن ،والمؤثرفي إزالة السخائم عن القلوب،وذلك من أوجه:

أما أولا : فلأنّه صدر كتابه بقوله "صاحب موسى وأخيه " يعني هارون -، وإنما فعل ذلك إزالة الوحشة عنهم ، وتقريرا لخواطرهم ، وإيناسا لقلوبهم عن نفارها عنه بكونه صاحبا لنبيّهم وأخاه ومصدقا لما جاءه به موسى ، كلّ ذلك إنّما يفعله على جهة الملاحظة ليستدرجهم إلى تصديقه بالحاورة اللطيفة والخطابات المؤنسة .

وأمّا ثانيا : فلأنّه قال : "يا معشر أهل التوراة "[٦١]:تشريفا لهم ورفعا لمكانتهم ، حيث صاروا مختصين بكتاب الله –تعالى – من بين سائر الخلق .

وأمّا الثالث : فهو أنّه احتجّ عليهم بما لايجدون سبيلا إلى إنكاره، من كونه مكتوبا عندهم في التوراة ، ولم يقل لهم انظروا في معجزتي ، ولكنّه وكّلهم إلى معرفته بما يعرفونه ، رفقا بهم ومناصحة وتقريرا لما هم عليه من ذلك ، ثمّ إنّه تلا وصفه في التوراة ليذعنوا بالتصديق على سهولة وقرب .

وأمّا الرابع : فلأنّه قد أورد ذكر وصفه ووصف أصحابه في الإنجيل ليعرفهم بذلك ، إيناسا لهم وتقريبا .

أمّا خامسا : فلأنّه ذكر المناشدة تذكيرا لهم بالآلاء العظيمة ،والنعم المترادفة ،بإكرامهم ،فأولها : المنة عليهم بإنزال التوراة وما شرع لهم فيها من الشرائع ، وثانيها : بإطعامهم المنّ والسلوى ، وثالثها: فلق البحر وشقه حتى جازوا فيه وأنجاهم من عدوهم بذلك ."[٦٢]

انظر إلى ما استمل عليه هذا الكتاب من الاستدراج الحسن ،واللطف المستحسن ، والبسط الذي يؤنس القلوب عن نفارها ، ويكسبها الإقرار بعد إنكارها، ولو قال في كتابه :

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الناسخ لشريعة موسى ابن عمران ،والماحي لآثارها ، والطامس لأعلامها ، إلى معشر اليهود الذين خالفوا وبدلوا أحكام التوراة ، وكذبوا بما جاء من عند الله وخانوا عهدالله ،واشتروا بآياته ثما قليلا ،أشهدكم بالله الذي مسخكم قردة ، وأنزل بكم نكالة ، وضرب عليكم الذلّة والمسكنة ،وأهانكم بالتزام الجزية ،وأقعدكم مقاعد الهوان ،حيث جحدتم نبوتي ،وأنتم تعرفون بها حقيقة لا لبس فيها ،كما تعرفون أبناءكم " . لكان تنفيرا ، ولم يكن استدراجا ولصار لجاجا ، أحقّ من أن يكون تقريبا وحجاجا ، لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمكان من الملاطفة وحسن الحجاج قبل الهجرة بالمشركين من أهل مكة وغيرهم من سائر القبائل ثمّ ما كان منه كم الملاطفة باليهود بني قريظة وبني النضير حتّى هلك من هلك عن بينة وحيي من حيي عن بيّنة.[٦٣]

وفي الامتحان:

يقول الشيخ العلوي أن من المعاني ما يكون متوسطا فيما أتي به من أجله فيكون اقتصاداً ، ومنها ما يكون قاصرا عن الغرض فيقال له تفريط ،ومنها ما يكون زائدا عن الحدّ فيكون إفراطا . فمعرفة هذه الأمور الثلاثة تسمى الإمتحان أي الاقتصاد والتفريط والإفراط ، ولهذه الثلاثة مدخل في كل شيء منالعلوم والصناعات والأخلاق والطباع .

تحدث الشيخ عن تلك الأمور الثلاثة بالتفصيل قائلا :

الاقتصاد : مشتق من القصد وهو العدل الذي لايميل إلى أحد الطرفين ،قال تعالى: "فمنهم مقتصد " (لقمان:٣٢) فتوسطه بين قوله :" فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله " (فاطر٣٢) ، فظلم النفس، والسبق بالخيرات هما طرفان ،والاقتصاد أوسطهما، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : "خير الأمور أوسطها " ونهى الرسول عن لباس الشهرتين ، فلا بدّ هناك من وسط مأموربه ،وهو لباس أهل الصلاح ، فلا يكون لباس أهل الفخر والخيلاء ولالباس أهل الإدقاع والقفر والمسكنة[٦٤] .

والوسط مستحسن عقلا ، وشرعا ،وعرفا ، وأمّا التفريط فهو التقصير والتضييع، ولهذا قال تعالى : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " (الأنعام :٣٨) ، أي : ما أهملنا من إبداعه المصالح الدنيوية ، ولا ضيعناها منه ، وأما الإفراط ، فهو الإسراف في الشيء والتجاوز للحد فيه يقال أفرط في الشيء ، إذاتجاوز الحد، فصار التفريط والإفراط هما الطرفان الضدان ، والاقتصاد هو الوسط في الاعتدال، فهذه هي المعاني التي تفيدها هذه الألفاظ من جهة اللغة، فقد نقلت هذه المعاني الثلاثة إلى أمور مصطلح عليها في علوم البيان نوضحها ونجعلها على مراتب ثلاث :

المرتبة الأولى في الاقتصاد:

ومعناه أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساويا له من غير زيادة ، فيكون إفراطا ، ولا نقصان ،فيكون تفريطا ،

فقد أورد الشيخ أمثلة من السنة النبوية ،فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "ألا أحدثكم بأحبكم إليّ وأقربكم منّي مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا الموطّؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتفيهقون "، فانظر إلى حبّه فما أعدله ،وإلى بغضه. ما أقومه، فأعطى المحبّ ما يليق به ، وأعطى المبغض ما يستحقه منغير إفراط في الجانبين ، ولا تفريط في حقهما ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس ،قريب من النار، والسّخي قريب من الله ،قريب من الناس ، بعيد من النار " فمن تأمل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم يجد فيه الاعتدال والاقتصاد في الوعظ وفي وصف الحبّ والبغض ،والبخيل والسخي[٦٥] .

وقد ذكر أحمد الهاشمي هذه الأمثلة في مباحث الإطناب وأقسامه فعدها من الترديد من غير ذك أنها حديثنبويّ[٦٦] .

من بلاغة النبويّ حسن الإرصاد:

الإرصاد: في اللغة مصدر " أرصد الشيء " : إذا أعدّه ، ومنه قوله تعالى "إنّ ربّك لبالمرصاد " "مفعال " من "رصده " كالميقات ، من وقته ، والغرض أن الله –تعالى – أعدّ العقاب للعصاة غير أن يفوّتوه بهرب ولا امتناع والإرصاد مقبول في المنظوم والمنثور ويكون أول الكلام مرصدا لآخره، ويكون مشرعا به ، فمتى قرع سمع السامع أوّل الكلام فإنه يفهم آخره لامحالة ومثال ذلك من الحديث النبوي : قوله صلى الله عليه وسلم : " فما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار " فإن السامع إذا وقف على قوله "فما بعد الدنيا من دار " فإنّه يتحقق بلا محالة أن بعده : "إلاّ الجنة أوالنار" لما بينهما من شدة الملائمة وعظيم المناسبة . ومن هذا قوله –عليه السلام – لما سار لفتح خيبر ، فلمّا رآها قال : " الله أكبر خربت خيبر ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " فإن السامع إذا وقف على قوله : "إنّا إذا نزلنا بساحة قوم " عرف ما بعده :"فساء صباح المنذرين " لأنّه لاصباح أعظم في البلاء من ذلك اليوم لما اشتمل عليه من القتل والأخذ ونهب المال.

ومن الإرصاد أيضا قوله صلى الله عليه وسلم في صفة القرآن : " فإذا الْتَبَسَتْ عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفع وشاهد مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة ،ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو أوضح دليل إلى خير سبيلبه عدل "

فانظر إلى هذا الكلام ما أعجب تلاؤمه وأعظم تناسبه فكانبعضه آخذا بأعناق بعض فلو سكت على كل كلمة لكانت معربة بأختها قبل ذكرها ، وهذا هو شأن الإرصاد وحقيقة أمره فلو سكت على قوله :"فإذا التبست عليكم الأمور " لأفهم بقوله : "كقطع الليل المظلم " [٦٧]
لأ اللبسهو أن لا يهتدي فيه للأمر ،كما أن الظلمة لا يهتدي فيها للطريق ،

الخاتمة :

رأينا خلال هذا البحث والدراسة الجهود التي قام بها الشيخ يحي بن حمزة اليماني في كتاب الطراز لدراسة البلاغة النبوية في أحاديثه صلى الله عليه وسلم التي تتميز ببلاغة الإيجاز وأصالة الأسلوب والسهولة والخلوص من التكلف والركاكة مع تأثرها بالقرآن الكريم وما أبرزه من التعليمات وهداية الخلق ، وعمل الشيخ جليل يستحق أن يدرس لبيان ما فيه من فوائد ومنافع للأمة الإسلامية ،جزاه الله عناوعن الأسلام خير الجزاء .ونوصي أخواننا الباحثين أو المؤلفين أن يزيدوا اهتمامهم بالبلاغة النبوية خلال أحاديثه.

الهوامش:

١-عبد الرحمن بن الكمال السيوطي،المزهر في علوم اللغة٢٠١١م١٤٣٢هـ المطبعة العصرية بيروت ،ج١،ص٣٩

٢-عبد المجيد قطاس(د)،الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية ،١٩٨٨م، دار الفكردمشق،ص١٥٧

٣-المرجع نفسه ،ص ص١٥٨-١٥٩

٤-المرجع نفسه،ص١٥٩

٥-عماد الدين خليل ،قالوا عن الإسلام،الطبعة الأولى ١٩٩٢م١٤١٢هـالندوة العالمية للشباب الإسلامي السعودية ،ص ١١٤

٦- شوقي ضيف(د) ،البلاغة تطور وتاريخ ، الطبعة الثانية ،دار المعارف بمصر ،غير مؤرخ ،ص١٣

٧-عبد العال سالم مكرم ،القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ،غيرمؤرخ،المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ،ص٣٤٤

٨-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق الإعجاز ،تحقيق الشربيني شريد ،دارالحديث ١٤٣١هـ٢٠١٠م ، ج١،ص٨

٩-المرجع نفسه ،ص١٠

١٠- المرجع نفسه ، ص١١-١٢

١١- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق الإعجاز ،تحقيق الشريفي شريد ،دارالحديث ١٤٣١هـ،٢٠١٠م ، ج١،ص١٥
١٢- المرجع نفسه ص٤١ – ٤٢.
١٣-الزمخشري ، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل** ،مطبعة النشارات أفتاب تهران غير مؤرخ، ج٤، ص٤٣
١٤-مالك بن أنس ،**الموطأ**، صححه ، ورقمه ، وخرّج أحاديثه وعلق عليه :محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ،غير مؤرخ الجز الثاني ، ص٩٨٦
١٥-أبوبكر عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر،الطبعة الثالثة ١٩٩٢مص١٦
١٦-الطرازالمرج السابق ،ج١،ص١٢٦
١٧-المرجع نفسه، ج١،ص١٢٦
١٨-أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ،دار الفكر ،طبعة مجددة ١٤٢٤هـ٢٠٠٣،ص٣٤٥
١٩- يحي بن حمزة ،الطراز، المرجع السابق،ج١ص١٢٧
٢٠جواهر البلاغة ، المرجع السابق،ص١٩٣
٢١-- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز، المرجع السابق ، ج٢، ص٧٩
٢٢-المرجع نفسه ،ج٢،ص٩٥-٩٦
٢٣- الخطيب القزوينيّ ، **الإيضاح في علوم البلاغة** ، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجيّ المجلد الأول والثانى ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م دار الجيل بيروت ، م١،ج٣ ، ص١٨١
٢٤-- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق،ج٢،ص١٩٤
٢٥-المرجع نفسه ج٢،ص١٩٦
٢٦-الحافظ جلال الدين السيوطي ، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ،دار الفكر ،غير مؤرخ ، ص٦٧
٢٧
٢٨-يحي بن حمزة ،الطراز، المرجع السابق ،ج٢،ص١٩٥
٢٩المرجع نفسه
٣٠يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ،،ج١٠١،٢-١٠٢
٣١المرجع نفسه ،ص١٤١
٣٢--- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ج٢،ص١٩٦
٣٢-المرجع نفسهج١ ، ص١٥٩-١٦٢
٣٣-عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة** ، لإمام عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق : محمد المنعم خفاجيّ ، مكتبة القاهر.غيرمؤرخ ، ص٩٤
٣٤-الزمخشري ، أساس البلاغة ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٦م-١٤٢٦هـ دار الفكر بيروت
٣٥- عبد القاهر الجرجاني المرجع السابق ،ج١،ص١٧١
٣٦-بسيوني عبد الفتاح الفيود،علم البيان ،الطبعة الثالثة١٤٣٢هـ٢٠١١م مؤسسة المختار، القاهرة .ص١٦٩
٣٧-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ،ج١،ص١٧٢
٣٨-المرجع نفسه ،ج١٧٣،١
٣٩- الحافظ جلال الدين السيوطي ، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، المرجع السابق،ص٧٨
٤٠-الطراز المرجع نفسه ، ج١،ص١٧٣
٤١-المرجع نفسه ، ج١، ص٢١٥
٤٢-المرجع نفسه ،ج١،ص٢١٧

٤٣- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ج١،ص٢٢٤
٤٤-المرجع نفسه ج١،ص٢٢٨
٤٥-المرجع نفسه ،ج١،ص٢٣١
٤٦-المرجع نفسه ،ج١ ،ص٢٤٧
٤٧- المرجع نفسه ،ج١،ص٢٤٩
٤٨- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق، ج١،ص٢٦١
٤٩-المرجع نفسه ، ج١،ص٢٥٩
٥٠-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ج١،ص٢٨٩-٢٩٠
٥١-المرجع نفسه ،ج١ ،ص ٣١١-٣١٢ .
٥٢-المرجع نفسه ،ج١،ص٣١٢
٥٣-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ، ج١،ص٣١٢
٥٤-المرجع نفسه ،ج١ ،ص ٣١٣
٥٥-المرجع نفسه ،ج١،ص ٢٩٥
٥٦-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق، ج٢،ص٦٢
٥٧-المرجع نفسه ،ج٢،ص ٦٣-٦٤
٥٨-المرجع نفسه ،ج٢،ص ٦٧
٥٩-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ج٢،ص٢٠٨
٦٠-المرجع نفسه ،ج٢،ص ٢٠٨-٢٠٩
٦١-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز ،المرجع السابق ، ج٢،ص٢٢٢
٦٢-المرجع نفسه ،ج٢ ،ص٢٢٤
٦٣- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق ، ج٢،ص٢٢٤
٦٤-المرجع نفسه ،ج٢ ،ص٢٢٩
٦٥- يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المرجع السابق، ج٢،ص٢٣٣
٦٦-أحمد الهاشم ، جواهر البلاغة ، المرجع المسايق ،ص١٩٩
٦٧-يحي بن حمزة اليماني ، الطراز، المرجع السابق ،ج٢ ،ص٢٤٩
يحي بن حمزة اليماني ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق الإعجاز ،تحقيق الشريبني شريد ،دارالحديث ١٤٣١هـ٢٠١٠م ، ج١،ج٢